القصص المدرسية

بقلم

سعيد العريان أمين دويدار محمود زهران

مخبر الجريدة

الطبعة التاسعة

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

مُخبرُ الجَريدَة

كانَ الشَّيْخُ «عَبْدُ التَّوَّاب» ، مِنْ أَعْيانِ قَرْيَةِ «الْحامُول» ، وَمِنْ مَشايِخ الْبَلَدِ فِيها ؛ وكانَ لَهُ وَلدَان : «سَيْفٌ ، وَبَدْرُ الدِّين» .

أَمَّا أَكْبَرُهُما وَهُو بَدْرُ الدِّين فَكانَ فَلَّاحاً ، يُساعِدُ أَباهُ فى فِلاَحَةِ الأَرْضِ ، وتَرْبِيَةِ الْماشِيَة .

وأَمَّا سَيْف ، فَقَدْ رَأَى أَبُوهُ أَنْ يُعَلِّمَه فى الْمَدارِس ، فَأَرْسَلَهُ إِلَى الْمَدْرَسَة الاِبْتِدَائِيَّة ؛

فَصارَ يَجْتازُ سَنَواتِ الدِّراسَة ، حَتَّى نالَ الشَّهادَة ، وانْتَقَلَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّة ، فَلَمَّا أَتَمَّ الدِّراسَةَ بها ، أَخَذَ وَالِدُهُ الشَّيْخ ، يُفَكِّرُ فى أَمْرِه ، وفى الْمَدْرَسَةِ الْعالِيَةِ الَّتى يُلْحِقُهُ بِها بَعْدَ ذٰلِك .

وَكَانَ سَيْفٌ شاباً مُمْتَلئًا ، مُعْتَدِلَ الْقَوَام ، قَوِيَّ الْجِسْم ، عَرِيضَ الصَّدْر ، حادَّ النَّظَر ؛ فَأَشَارَ الْعُمْدَةُ عَلى أَبِيه ، أَنْ يُلْحِقَهُ بالكُلِّيَّةِ الْحَرْبِيَّة ، لِيَكون ضابِطاً بِالْجيْش ؛ وَأَنْ يَكْتَفِيَ بِوَلَدِهِ بَدْرِ الدِّين ، فى زِراعَةِ أَرْضِه ، وَرِعايَةِ شُئُون دارِه .

* * *

وَبَعْدَ سَنَوات ، أَتَمَّ سَيْفٌ دِراسَتَهُ بالكُلِّيَّةِ الْحَرْبِيَّةِ ، وَأَصْبَحَ ضابِطًا بالْجَيْش ؛ يَلبَس الْحُلَّةَ الْعَسْكَرِيَّة ، وتَلْمَعُ النُّجُومُ عَلَى كَتِفَيْه ، وَيُحَيِّيهِ الْجُنُودُ بِالتَّعْظِيمِ كُلَّما رَأَوْه ، وَيَمْتَلِئُ جَيْبُهُ بِالنُّقُودِ أَوَّلَ كُلِّ شَهْر .

وكان إذا حَضَرَ إلى الْقَرْيَةِ لِزيارَةِ أَبِيه ، خَفَّ الْعُمْدَةُ لاسْتِقْبَالِه ، وَاحْتَفَلَتْ به الْقَرْيَةُ كُلُّها : فَيَفْرَحُ أَبُوهُ كلَّ الْفَرَح ، بِما يَلْقاهُ وَلَدُه سَيْف ، مِنْ مَظاهِرِ التَّعْظيمِ وَالإِحْتِرَام .

وَلٰكِنَّ الشَّيْخَ عَبْدَ التَّوَّاب، لَم يَتَمَتَّعْ بِذٰلِكَ طويلا ؛ فَقَدْ هَدَّهُ الْكِبَر ، وطَحَنَهُ الْمَرَض ،

وَأَدْرَكَتْهُ مَنِيَّتُهُ فَمات !

وحَضَرَ الضَّابِط سَيْف ، لِيَشْهَدَ جَنازَةَ أَبِيه ؛ وكان مَشْهَدًا جَلِيلا ، اِجْتَمَع فِيهِ أَهْلُ الْقَرْيَة ، وَالْقُرَى الْمُجاورَة ؛ وَحُمِلَ النَّعْشُ عَلَى الْأَعْناق ، وسارُوا بِهِ إِلى الْمَقْبَرَة ، فى جَمْعٍ حاشِدٍ ، حَتَّى دَفَنُوهُ فى التُّرَاب وقَرَءُوا عَلَيْهِ الْقُرآن ، وَوَزَّعُوا الصَّدَقَاتِ عَلَى الفُقَرَاءِ وَالْمَساكِين ، وَوَقَفَ سَيْفٌ ، وَأَخُوهُ بَدْرُ الدِّين ، يَتَقَبَّلَانِ تَعْزِيَةَ النَّاس ، وَيَشْكُرَانِ لَهُمْ سَعْيَهُمْ .

* * *

وبَعْدَ ما انْتَهَتْ أَيَّامُ الْعَزاءِ ، اجْتَمَعَ بَعْضُ أَهْلِ الْقَرْيَة ، لِقِسْمَةِ الْمِيرَاثِ بَيْنَ سيْفٍ وَأَخيه . ولَم يَكُنْ لِبَدْرِ الدِّينِ أَوْلاد ، فَأَشارَ النَّاسُ عَلَيْه ، أَنْ يَنْزِلَ لِأَخِيهِ سَيْفٍ عَنْ نصِيبِهِ فى التَّرِكَة ، وظَلُّوا يُقْنِعُونَهُ بِذٰلِك ، وَيَقُولون : « إِنَّ أَخاكَ يا بَدْرَ الدِّين ، ذُو جاهٍ ومَقام ؛ ومِمَّا يُعْلِي قَدْرَهُ بَيْنَ النَّاس ، أَن يَكونَ مَسْمُوعاً بالْغِنَى والثَّرْوَة . وأَنْتَ وَحِيدٌ فَرِيدٌ ، لَيْسَ لَكَ أَوْلادٌ تَعُولُهُمْ ، وتَحْمِلُ هَمَّهُم ؛ فَمِنَ الْخَيْرِ لَكَ أَنْ تَكْتَسِبَ عَطْفَ أَخِيك ، لِيَنْفَعَكَ بجاهِهِ وَمَقامِه عِنْدَ الْحُكَّام ، وَيَتْرُكَ

لَكَ الْأَرْضَ كُلَّها ، تَزْرَعُها وتَنْتَفِعُ بِغَلَّتها وَحْدَكَ . . . »

وَأَكثَرُوا مِنَ الْقَوْلِ عَلَى بَدْرِ الدِّين ، حَتَّى اقْتَنَعَ بِكلامِ النَّاس ، ونَزَلَ لأَخِيهِ عَنْ نَصِيبِهِ فى الْمِيرَاث ؛ فَشَكَرَهُ أَخُوهُ شُكْرًا جَزِيلا ، ثمَّ وَدَّعَهُ وَسَافَرَ إِلى عَمَله .

* * *

وَظَلَّ بَدْرُ الدِّين ، يَفْلَحُ الأَرْضَ وَيَزْرَعُهَا ، وَيَتَمَتَّعُ بِخَيْرَاتِها هُوَ وَزَوْجَتُه ، وعَاشَا عَلَى ذلكَ زَماناً ؛ لكِنَّه لَمْ يَنْعَمْ طَويلاً بهٰذِهِ الْعِيشَةِ

السَّعِيدَة ، فَقَدْ فاجَأَهُ مَرَضٌ شديد لمْ يُمْهِلْهُ أَيَّامًا ، فمَاتَ وَتَرَكَ زَوْجَتَهُ حُبْلَى .

وحَزِن سَيْفٌ عَلَى أَخِيهِ حُزْناً شَدِيداً ، وَبَكَى عَلَيْهِ كثِيرًا ، وَرَأَى أَنَّ صِلَتَهُ بِالْقَرْيَةِ قَدِ انْقَطَعَتْ ، بَعْدَ مَوْتِ أَبيهِ وَأَخِيه ، فأَخَذَ يَبِيعُ أَمْلاكَه شيئًا فشيئًا ، وهُو شديدُ الحزنِ والأَسى ، حتَّى باعَ التَّرِكةَ كلها ، وهَجَرَ الْقَرْيَةَ وأَهْلَها .

* * *

وبَعْدَ بِضْعَةِ أَشْهُر ، وَلَدَتْ زَوْجَةُ بَدْرِالدِّين وَلَدًا سَمَّتْهُ « صَابِرًا » : فَنَشَأَ يَتِيماً فَقِيرًا ، لَيْسَ لَهُ إِلَّا خَالُه ، الَّذِى عَطَفَ عَلَيْه ، فأَطْعَمَهُ وَكَسَاه ، وَتَعَهَّدَهُ وَرَبَّاه ، ثمَّ أَرْسَلَهُ مَعَ أَوْلادِهِ إِلى الْمَدْرَسَة ، فى مَدِينَةِ « الْقَاهرة » ، فَسَكَنُوا فى بَيْتٍ وَاحد ، مع بَعْضِ أَقَارِبِهِمْ منْ تَلاميذ الْقَرْيَة .

وَلَمْ يَكُنْ بينَهُمْ فَقيرٌ إِلَّا صابِر ؛ فكانُوا يَسْتَخْدِمُونَهُ فى قَضَاءِ حوائجهِم : يَحْمِلُ كُتُبَهم ؛ ويُهيِّئُ طَعامَهُمْ ، ويُنظِّفُ حُجُرَاتِهم ويَغْسِلُ الأَوَانىَ والثِّيَاب ، وَيَشتَرِى كلَّ ما

يَلزمُهُمْ منَ السُّوق ، ويَقُومُ مِنهُمْ مَقَام الْخَادِم منْ سادتِه .

وَكانَ صابرٌ يشعُرُ فى كلِّ ذٰلك بالذُّلِّ وَالْمَهانة ؛ لكنَّهُ كانَ يَتَحَمَّلُهُ بِصَبْرٍ وجَلَد ، ثمناً لتعَلُّمِهِ معَ أَوْلادِ خالِه ؛ وَدفعَهُ ذلكَ إلى أَن يَجدَّ ويَجتهِد ، حتَّى يَنالَ الشَّهادةَ الابْتدائيَّة .

* * *

وَما كاد يَنالُها ، حتَّى بَدَأَ يُفكِّرُ فى حيلَةٍ يَكْسِبُ بها رِزْقَه ، ويَسْتغْنِى بها عَن الْعيْشِ معَ أُولٰئِكَ الأَوْلادِ الْمَغْرُورينَ بغِنَاهم ، الَّذِينَ يَحتقِرُونَه لِفَقْرِه ، ويُذِلُّونهُ فى خِدْمتِهم ،

ويُولِمُونَ شُعُورَه بِكِبْرِهِمْ وتَعاظُمِهم .

ولكنْ .. . ماذا يَعْمل؟ وَأَىَّ بابٍ منْ أَبواب الرِّزْقِ يَقْصِد ؟

لَقَدْ طَرَقَ جِهاتٍ كَثيرَة ، لعَلَّهُ يُقْبَلُ كاتِباً فى مَتْجَر ، أَوْ عامِلًا فى مَصَنَع ، أَو مُساعِدًا فى صَيْدَلِيَّة ؛ أَوْ طَبَّاعاً فى مَطبَعة ، أَوْ وَرَّاقاً فى مكْتبَة ؛ أَوْ صَبِيًّا فى مَكْتَبِ أَحدِ الْمُحَامِين ، أَوْ مُمَرِّضًا فى عِيادَة بَعضِ الأَطِباء...

لٰكنَّ الدُّنْيا ضَاقَتْ فى عَينَيه ، وٱنْسَدَّتْ أَبْوابُ الرِّزْقِ فى وجْهِه ، وَٱسْتَوْلَى علَيهِ الْيَأْسُ والْغَمُّ ، وَٱنْقطَعَ أَمَلُه فى الْحَيَاة ؛ فَدَارَ هائمًا فى

طُرُقاتِ الْمَدينة ، يَخْرُج منْ شارعٍ إلى شارع ، وَينطَلِقُ منْ حَيٍّ إلى حَيٍّ ، وهُوَ لا يَدْرِى إلى أَىِّ غايةٍ يَسِير ، وَلا إلى أَىِّ جهَةٍ ينْتهى ؛ حتَّى انهَدَّ حَيلُه ، وَخارَتْ قُوَاه !

* * *

وَبَينما هُو يَسِيرُ فى مَيْدانِ الْمَحَطَّة ، رأَى على بُعْدٍ ناساً مُجتمِعِين ، وقُطُرَ التَّرامِ وَاقِفة ، بَعْضُها وَراءَ بَعْض ؛ فشَقَّ الزِّحامَ ليَرَى ما هُنالك ، فإذا غُلامٌ صَغير ، قَدْ صَدَمه التِّرَام ، فأَلْقَاهُ عَلَى الأَرْضِ لا حَرَاكَ بِه ؛ وَالنَّاسُ منْ حَوْلِه حَيَارَى ذاهلُون ، لا يَدْرُونَ ماذا يَفْعَلون!

فلمَّا رَأَى صابرٌ هذا الْمَنظَر ، تَأَلَّم وحَزِن ، لكنَّهُ لَمْ يَقِفْ مَكْتُوفَ الْيَدَيْنِ كَسائرِ النَّاس ، فانْدَفعَ نحْوَ المُصَاب ، يُحاوِلُ أَنْ يُسْعفَه ، وأَخَذ يَعْمَلُ لهُ التَّنفُّسَ الصِّناعيَّ ؛ لعَلَّه يُفيق ؛ ولكنَّ الصَّدْمةَ كانتْ قَوِيَّة ، فذهَبَ إِسْعافُه منْ غَير فائدَة ، وظَلَّ الْغُلامُ فى غَشْيتِه ، لا يَتَحَرَّكُ وَلا يُفِيق .

وكانَ أَحَدُ الوَاقِفين ، قدْ سارَع إلى أَقْربِ مِسَرَّة ، فأَخْبَر رجالَ الإِسْعاف ؛ فجَاءُوا فى سَيَّارَتهم ، وَتقَدَّمُوا منَ الْغُلام ، يُعالِجُونه وَيُسْعفُونه ، ولكنَّهُ لَمْ يُفِقْ ؛ فلمَّا أَعْيَاهُمْ

أَمرُه ،حَمَلُوهُ فى السَّيَّارة ،وَٱنْطَلَقُوابهِ إلى الْمُسْتشْفى.

وَقَفَ النَّاسُ بَعْدَ ذلك مُتـأَلِّمين ، يَتَسَاءَلونَ عنِ الْغُلامِ الْمُصاب ، وَلا يَدْرُونَ مَنْ هُو . وكانَ صابرٌ قدْ وجدَ صورَتَهُ بَيْنَ طَيَّاتِ ثيابِه ، وهُو يُسْعفُه ؛ فرَأَى منَ الواجِب ، أَنْ ينْشُرَ الصُّورة فى الْجَرائد ، عسَى أَنْ يَهْتدِىَ إليهِ أَهْلُه ، فـأَخَذها وانطلَقَ إلى إدارة إحْدى الْجَرائِد ، فـأَبْلَغَهُم الْحَادثَة ، وأَعْطاهُمُ الصُّورة ؛ فطلبوا إليهِ أَنْ يَكْتُبَها لهُمْ كما رآها .

فكَتبَها صابِرٌ فى عِبارةٍ فَصِيحة ، ووَصَفها بـأُسْلوب واضِح ، ثمَّ سلَّمَها إلى مُديرِ الْجَريدة ؛

فلمَّا قَرأَها ، سُرَّ منْ لغَتِه ، وَٱنْبَسَطَ منْ حُسنِ تعبيره ، وَدِقَّةِ وَصْفِه ؛ وَأَعْطاهُ رِيالا ، مُكافأَةً لهُ عَلى ذٰلك ؛ ووَعدَهُ بريالٍ مِثْله ، عنْ كلِّ حادِثَةٍ يُخْبِرُ بِها الْجريدة ، أَوْ خَبرٍ مُهمٍّ ينقُلُه إليْها .

* * *

تَناوَلَ صابرٌ الرِّيال ، وجَعَل يُقلِّبُهُ فى كَفِّه ، وهو لا يكادُ يُصدِّقُ أَنَّهُ مِنْ كَسْبِ يَدِه ؛ فانبَسَطَتْ أَساريرُ وَجْهِه ، ولمَعتْ الإِبْتِسامةُ على شَفتيْه ، وبرَقتْ عيْناهُ بَرِيقَ السُّرُورِ والْفرَح ، وٱنْفتَحَ أَمامَه بابُ الأَمَل ؛ وأَيْقَن

ديك

أَنَّه يسْتطيعُ منَ الان ، أَنْ يَعتمِدَ عَلى نَفْسِه ، وأَنْ يَكْسِبَ عيْشَهُ بكَدِّه وجِدِّه .

وَكانَ هٰذا الرِّيالُ مِفْتاحَ السَّعادة ، وبابَ الرِّزْق ؛ فانتقل من يَوْمِها إلى غُرْفَةٍ وَحْدَه ، ٱسْتأْجَرها فى سَطْحِ أَحدِ الْمنَازِل ، فكانتْ هىَ غرْفةَ نَوْمِه ، وطَعامِه ، ومُطالعتِه ؛ يَدُورُ طولَ النَّهارِ ، يَتَسَمَّع الْأَخْبار ، ويتَعَرَّفُ الْحَوادِث ، فَيَنْقُلُها إلى الْجَرِيدَة ، ويَقْبِضُ أُجْرَتَه ؛ ثمَّ يـأْوِى إلى غُرْفَته فى اللَّيْلِ ، فَيَتَعَشَّى ، ويشْكُر اللهَ عَلَى نِعْمتهِ ، ثمَّ ينام .

* * *

عَاشَ صابرٌ فى هٰذِهِ الْغُرْفَةِ وَحِيدًا مُنْقَطِعاً عَن النَّاس ، لا أَهْلَ يَحْتَمى بِهِم ، وَلاَ أَقارِبَ يَزُورُهُم ، وَلاَ مَالَ يُنْفِق مِنْه ، غَيْرَ الرِّيال ، الَّذِى لاَ يَحْصُلُ عَلَيْهِ إلاَّ بِشِقِّ النَّفْس . لٰكنَّهُ كانَ قانِعاً رَاضِياً ، سَعيدًا بِهٰذِهِ الْعِيشَةِ الْبَسِيطَة يَسْتَيْقِظُ مَعَ الْفَجر ، يُصَلِّى لله ، ثُمَّ يَفْتحُ نافِذَته ، فيُطِلُّ مِنها عَلى الدُّنيا السَّاكِنة ، وَيَسْتقبِلُ الشَّمس ، وَهىَ تُرْسِلُ أَشعَّتَها عَلى الْعالَمِ النَّائم ، فَيَصْحُو منْ رُقاد ، وَيَنْشَطُ منْ خُمُول ؛ وتَدِبُّ فيهِ الْحَياة ؛ فيَنتَشِرُ النَّاسُ فى الطرُقات ؛ وَينْطلِقُ كُلٌّ إلى عَملِه .

وَكانَ أَجْمَلَ ما يَسُرُّه ، أَنْ يَسْتفتِحَ يَوْمَهُ بالنَّسيمِ الْبَليل ، يَهُبُّ عَلَيهِ مِنْ حَديقةِ الْجِيران مُعطَّرًا بالْوَرْدِ والرَّيْحان ، والْفُلِّ والْياسَمِين ، وأَنْ يَسْمعَ الطُّيُورَ تُغرِّدُ فَوْقَ أَشجارِها ، وهىَ تطِير منْ غُصْنٍ إلى غُصْن ، وتَحُطُّ منْ فَرْعٍ على فَرْع ، وأَنْ يَرَى ٱبنةَ صاحِبِ الْقصْر ، تنزِلُ مُبكِّرةً إلى الْحَديقة ، تقْطِفُ منْ أَزْهارها ، وَتُعِدُّ مِنها طاقَةً جَميلة ، حتَّى إذا رَأَتْ أَباها خارِجاً إلى عَمَله ، أَسْرَعتْ إليْه بأَجْمَلِ زَهْرةٍ فى الْحديقة ، فزَيَّنتْ بِها

صَدْرَه ؛ فيضُمُّها إليْه ، ويُقبِّلُ حَبِينَها ، ثُمَّ يَنْصَرِف .

كان صابِرٌ يَشْهَدُ هذا الْمَنظَرَ كلَّ يَوْم ، فيَنْشَرِحُ صدرُه ، ويَغْمُرُهُ السُّرُورُ وَالْفَرَح ، وَيَشْعُرُ بالسَّعادةِ تَفيض عَليْه ، كأَنَّ هٰذا الرَّجلَ أَبُوه ، وكأَنَّ هٰذهِ الْفتاةَ أُخْتُه .

* * *

وكانَ صابرٌ يَخرُجُ كلَّ يَوْم ، يَدُورُ فى الجهات ، وَيَطوفُ بالنوَاحى ، باحثاً عَن الْحَوادث ، مُنقِّبًا عنِ الْأَخبار ؛ فيُدْرِكهُ التَّوفيقُ أَحْياناً ، فيَعْثُرُ على حادِثةٍ أَوْ خَبرٍ مُهِمّ ،

فيعودُ آخرَ النَّهارِ بالرِّيال ، سَعيدًا قَريرَ العَيْن ؛ وأَحْياناً يَسوءُ حَظه ، فَلا يَعْثرُ على حادثةٍ وَلا خبَر ؛ وَقَدْ يُلازمُهُ سُوءُ الحظِّ أَياماً ، فتَسوءُ حالُه ، وتَضْطَربُ أُمُورُه ، ويَظَلُّ فى فقْرٍ وهَمّ ، حتَّى يَمُنَّ الله عليْه بالرِّيال .

* * *

وَفى صَبيحَةِ يَوْمٍ خَرجَ كَعادتِه ، يَطوفُ فى نوَاحِي المَدِينة ، يتنقَّلُ مِنْ حَىٍّ إلى حَىٍّ ، ومن قَهْوَةٍ إلى قَهْوَة ، ومن مَحْكمَةٍ إلى مَحْكمَة ، ومنْ ديوانٍ إلى ديوان ؛ حَتى أَوْشكَ النَّهارُ أَنْ يَنْتهى ، ولَم يَعْثرْ على خبرٍ يُبَلِّغُه للْجَريدة ،

أَوْ يَظفَرْ بحادِثَةٍ يَصِفُها لها .

وانْتهَى بِه الطَّوَافُ عِندَ «حَديقَةِ الْحَيوان» وكانَ التَّعبُ قدْ نالَ منْه ، ففتَّشَ فى جَيْبِه ، فلمْ يجِدْ بِه إلَّا نِصْفَ قِرْش ، كانَ هوَ كُلَّ رأْسِ مالِه ؛ فأَمْسكَهُ بيَدِه وَجعلَ يَنْظرُ إليْه ، وَيُقَلِّبُهُ بيْنَ أَصابِعِه ، وهوَ حَيْرانُ فى أَمرِه ، لا يَدْرى ، أَيَدْفعُ القِرْشَ وهوَ كلُّ ما يَمْلك ، فيَدْخُلَ الحَديقَة ، ويُرَوِّحَ عنْ نفْسِه ؟ أَمْ يُبقِيهِ فى جَيْبِه ، وَيَدَّخرُهُ لعَشَائِه ، ما دامَ لَيسَ مَعهُ غَيْرُه ؟ وَظلَّ كَذٰلكَ مُتردِّدًا يُخْرجُ القِرْش ، ثمَّ يَضَعُه ، ويتَقَدَّمُ نَحوَ البابِ

تارَة ، ثمَّ يَرْتَدُّ عنْهُ تارةً أُخْرى .

فلَمَّا طالَ بهِ الوُقوف ، أَخرَجَ القِرْشَ منْ جَيْبِه ، وَاندفَعَ نَحوَ البابِ وَهو يَقول : «لَئنْ كنْتَ أَيُّها القِرْشُ آخِرَ ما أَمْلك ، لَأَدفَعنَّك ، وَلَنْ أَبْخَلَ بكَ فى سَبِيلِ الترْوِيحِ عنْ نَفْسى ، والتَّفْرِيج لهمِّى ؛ وَلَئنْ ضاقَتْ بىَ الدُّنيا فى مُجاوَرةِ بَنى الْإِنسان ، فلَيْسَ بَعيدًا أَن أَجِدَ الفَرَج والسَّلْوٰى ، فى ضِيافَةِ الحيَوان .

* * *

ثمَّ دَخلَ الحَديقَة ؛ فَسَمِعَ تَغْرِيدَ الْبُلْبُل ، وَشَقْشَقَةَ العُصْفور ، وَصُرَاخَ القِرْد ، وَزَئيرَ

السَّبْع ، ورَأَى لِعْبَ الدُّبَّة ، ووَثْبَ النِّسْناس ، وزَحْفَ الثُّعْبان ، وَشاهدَ الْببَّغاءَ المُتَكلِّم ، والثَّعْلبَ الْمَكَّار ، وأَبصَرَ النَّعامَةَ والزَّرافَة ، وعِجْلَ البَحْرِ والتِّمْساح ، وَما فى الحديقَةِ من عَجائِبَ وغَرائب ، فأَنساهُ كلُّ ذٰلِك ، ما هُوَ فِيهِ مِنْ فَقْرٍ وضِيق .

وحَلَّ مِيعادُ الخُرُوج ، وَدَقَّتِ الْأَجْراس إِيذانًا بالاَنصِرَاف ، وَالْأَزْمَة على حالِها لَم تَنْفَرِج ، فَخَرجَ مِنَ الحديقةِ يَتعَثَّر ، وليْسَ على وجْه الْأَرْض ، أَشَقَى وَلا أَتْعَسُ منْه .

وَرأَى أَمامَه «حَديقَةَ الْأُرْمان» الْواسِعة ،

فَدَخَلَها ، وجَلَسَ على مَقعَدٍ فِيها لِيَسْتريحَ ؛ وَاسْتَمَرَّ جالساً حَيْران ، حَتى غَرَبَتِ الشمْس ، وبَدَأَ الظَّلامُ يخَيِّمُ ، وأَخَذَ الْمُتَنزِّهون يَنْصَرِفون ، وَلَم يَبْقَ إِلَّا هُوَ جالساً يُفكِّرُ فى أَمْرِه لا يدْرِى ماذا يَصْنَع ، ولا إلى أَينَ يَسير !

فلَمَّا رأَى نفْسَهُ وَحيدًا ، قامَ يمشى مُتثاقِلا ، مطْرِقاً برَأْسِه إلى الْأَرْض ، وَٱلْهَمُّ يَمْلَأُ صَدرَه ؛ وَبَينَما هو كَذٰلِك ، سَمِع صَوْتَ اسْتغَاثَةٍ يَطْرُقُ أُذُنَيْه ؛ فرَفَع رَأْسَهُ ، فلمَحَ بَيْنَ الْأَشْجارِ أَشباحاً ثَلاثَة ، فاتَّجَهَ نَحْوَها .

فَلمَّا دَنا مِنها ، أَبْصرَ شَخصاً يحاوِلُ الفِرار ،

وَيَرْمى على الْأَرْضِ شَيئاً منْ يَدِه ؛ فأَسرَعَ إِلَيهِ صابرٌ فالتقَطَه ، فإِذا هو حَقِيبةٌ منْ حَقائبِ السَّيِّدات ، فأَخَذَها ، وتَقَدَّمَ مُسْرِعاً نَحوَ الشَّبَحَيْنِ الْاخَرَيْن ، وصَوْتُ الاِسْتغاثَةِ يَعْلُو ويَرْتفِع ؛ فحينَ وَصَلَ إِليْهما ، وَجَدهُ لِصًّا يهْجُمُ على فتاة ، يُحاوِلُ أَنْ ينْتَزِعَ مِنها حُلِيَّها ، وَهِيَ تُحاوِلُ الفِرارَ مِنهُ فَلا تَسْتَطيع .

فانْدَفَع صابرٌ إِلى هٰذا المُجْرِم الْأَثيم ، فَضرَبَهُ بِقَبْضَةِ يَدِهِ ضَرْبَةً قَوِيَّة ، أَلْقَتْهُ على الأَرْض ؛ وَخَلَّصَ الْفَتاةَ مِنْه ، وَهَمَّ بالْقَبْضِ عَلَيْه لِيَسُوقَهُ إِلى القِسْم ، لٰكِنَّهُ فَرَّ هارِبًا .

أَمَّا الفَتاة ، فَظَلَّتْ وَاقِفَةً تَرْتَعِد ، لَا تَسْتَطِيعُ الكلامَ مِنَ الرُّعْب ؛ فاتَّجَهَ إِلَيْها صابر ، وَجَعَلَ يُطَمْئِنُها ، وَيُهَدِّئُ رُوعَها ، حَتَّى هَدَأَتْ ، واطْمَأَنَّتْ ؛ ثُمَّ رَدَّ إِلَيْها حَقِيبَتَها ، فَوَجَدَتْها كامِلةً غَيْرَ مَنْقُوصَة ، وَسَارَ مَعَها إِلى باب الحَديقَة ؛ وَهُناك نَصَحَها أَنْ تُسْرِع بِالعَوْدَةِ إِلى دَارِها ، ثُمَّ وَدَّعَها لِيَنْصَرِف .

لٰكِنَّ الفَتاةَ اسْتَوْقَفَتْه، وتَرَجَّتْهُ أَن يَصْحَبَها إِلَى دارِ أَبيها ، وَقالَتْ لَه : « أَنت يا سَيِّدى شَهْمٌ كَريم ، صَنعْتَ الْمَعْرُوف ، وأَغَثتَ

المَلْهُوف ، فَكمِّلْ جَميلَك ، واصْحَبْنِى إلَى بَيْتى ؛ فإنى أَخافُ أَن يَكُونَ اللُّصُوصُ كامنينَ لى فى الطَّرِيقِ ، يَسْطونَ عَلَىَّ إذا رَأَوْنِى وَحدى ! »

فَتردَّدَ صابِرٌ بُرْهَة ، يُفَكِّرُ فى خُلوِّ جَيْبِه ، وَأَنْ ليْسَ مَعهُ مِن النُّقودِ ما يُوَصِّلُه ؛ وهَلْ يَقْبلُ مِنْ فتاة ، أَن تَدْفعَ لَه أُجْرةَ التَّرَامِ ، على غَيْرِ مَعرِفَة ؟ وَماذا يَظنُّ بهِ أَبُوها حينَ يَراهُ مَعها ؟ لَعَلهُ يُسِيءُ بهِ الظَّنَّ ، فيَحْسِبَه شَرِيكاً لِأُولئك المُجْرِمِين !

هوَ يُفَكِّرُ فى كلِّ هذا ، وهىَ مُتعلِّقَةٌ بِراعِه ،

تَرْجوه وتُلِحُّ فى الرَّجاءِ ، وتتوَسَّلُ إليْهِ ألَّا يُخَيِّبَ رَجاءَها ، وَألَّا يَدَعَها تَسيرُ وَحْدها فى الطَّريق ؛ فلمْ يَجدِ الْفَتَى بُدًّا مِن الذَّهابِ مَعها ، ورَأَى مِنْ تَمامِ الْمُرُوءَة ، أَنْ يُوَصِّلَها إلى بَيْتِها ؛ فَشَكرتْهُ الفتَاة ، واسْتأْجَرَتْ سَيَّارة ، وَرَكِبتْ ، ورَكِبَ مَعهَا صابِر .

وانْطلقَتِ السيَّارَةُ فى شَوارِعِ الْقاهرَة ، حتَّى رأَى صابرٌ أَنَّها تَسِيرُ بهِما فى الشارِعِ الَّذِى يُوَصِّلُ إِلَى بَيْتِه ، ثمَّ يَقِفُ عِندَ بابِ ذٰلِكَ القَصْر ، الَّذِى يُطِلُّ على حَديقَتِه كلَّ صباح ؛ فأَدْرَكَ فِى هٰذهِ اللَّحْظة ، أَنَّها هِىَ الْفَتاة ،

الَّتى يَرَاها فى صَبِيحَةِ كلِّ يَوْم ، تَنْزلُ إلى الْحَدِيقَة ، وَتجْمَعُ الْأَزْهار . . .

* * *

ما كادَتِ الْفَتاةُ تَفْتَحُ الْباب ، حَتَّى رأَتْ أَباها وَاقِفاً فى الْحَدِيقَة ؛ فَلَمَّا رَآهُ صابِر ، خَجِلَ وَهَمَّ أَنْ يَنْصَرِف ؛ لٰكِنَّ الْفَتاةَ أَمْسَكَتْ بِه ، وَأَلَحَّتْ عَلَيْهِ فى الدُّخُول ؛ فاسْتَحْيا صابِرٌ وَلَمْ يَقْبَلْ ، فَلَمْ تَسْمَحْ لَهُ الفَتاةُ بِالانْصرَاف .

حِينَذَاكَ تَقَدَّمَ أَبُوها ، يَسْأَلُها وَهُوَ غَضْبان : « أَيْنَ كُنْتِ ياعَفاف ؟ وَمَنْ هٰذا الَّذِى مَعَك ؟ ! »

فأَجابَتِ الْفَتاةُ فى هُدُوء : «مَهْلًا يا أَبِى ، فَعَهْدِى بِكَ تُرَحِّبُ بِالضُّيُوف ، وَتَبَشُّ فِى وُجُوهِهِمْ ؛ وَهٰذَا الْفَتَى الكَرِيمُ ، أَكْثَرُ مِنْ ضَيْف . . .

«إِنَّ حَقَّهُ عَلَيْكَ أَنْ تُرَحِّبَ بِه ، وأَنْ تَجْزِيَهُ أَحْسَنَ الجَزَاء . . .

«إِنَّهُ فَتى نَبِيل ، وَشَهْمٌ كَرِيم ، نَجَّانِى مِنْ شَرِّ اللُّصُوص ، وَخَلَّصَنِي مِنْ أَيْدِى الْمُجْرِمِينَ السَّفَّاكين . . . !

«لَقَدْ هَجَمُوا عَلَىَّ ، وَأَنا أَتَنَزَّهُ فى حَدِيقَةِ الْأُرْمان ، وَاخْتَطَفُوا حَقِيبَتِى ، وأَنْتَ تَعْلَمُ ما

فِيها ؛ وَبَيْنَما هُمْ يُحاوِلُونَ إِتْمامَ جَرِيمَتِهِم ، بِتَجْرِيدِى من كل ما أَتَحَلَّى بِه ، وَأَنا بَيْنَهُمْ كالْفَرِيسَةِ بَيْنَ الذئاب ، أَدْرَكَنِى اللهُ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِه ، فَساقَ إِلَىَّ هٰذا الفَتَى الشُّجاع ، فَكانَ رَسُولَ النَّجَاة . . ؟

«وَأَنْتَ أَيُّها الفَتَى النَّبِيل ، تَقَدَّمْ ، فَهٰذا وَالِدِى الباشا ، قائِدُ جَيْشِنا المِصْرىّ ؛ لِتَنالَ عِنْدَهُ ما تَسْتَحِقُّ مِنْ إِجْلَالٍ وإِكْرَام . . . تَقَدَّمْ تَقَدَّمْ ، فإِنَّهُ يَسرُّهُ كَثِيراً ، أَنْ يَعْرِفَ فَتًى شُجاعاً مِثْلَكَ . . . ! »

* * *

عِنْدَ ذاكَ ، تَقَدَّمَ الباشا إِلَى صابِر ، فَسَلَّمَ عَلَيْه ، وَشَكَرَهُ شُكْرًا عَظِيماً ؛ ثُمَّ قادَهُ إِلَى حُجْرَةِ الاِسْتِقْبال ، وَهُناكَ جَلَسَا يَتَحادَثان ؛ فَسَأَلَهُ الباشا :

« مَنْ أَنْتَ أَيُّها الْفَتَى ؟ وَما صِناعَتُك ؟ »

فأَجَابَهُ صَابِر : « أَنَا يَا سَيِّدى ، صَابِرٌ بَدْرُ الدِّين ، أَشْتَغِلُ مُخْبِرًا فى إِحْدَى الْجَرَائِد ، أَتَسقَّطُ لَها الحَوَادِثَ وَالْأَخْبار » .

فَقالَ الْبَاشَا فى قَلَق : « إِذَنْ ، سَتَنْشُر حَادِثَةَ ابْنَتى فى الْجَرِيدَة . . ؟ »

فَقَالَ الْفَتَى فى حَيَاء : « الْأَمْرُ لَكَ يَا بَاشا ،

وَلَوْ أَنَّنِى لَمْ أُصَادِفْ حَادِثَةً غَيْرَها مُنْذُ أَيَّام .! »

فَسَأَلَهُ الْبَاشا : «وَكَمْ تَأْخُذُ مِنَ الْجَرِيدَةِ أَجْرًا عَلَى ذٰلِك ؟ »

قَالَ صابِر «رِيَالًا يَا سيِّدِى عَنْ كلِّ حَادِثَة ».

فَأَخْرَجَ الْباشَا منْ جَيْبِهِ جُنَيْهاً ، وَقَدَّمَهُ إلى الفَتَى وَهو يَقُول : «خذْ هٰذا يا صابر ، جَزاءَ ما صَنَعْتَ من مَعْرُوف » .

فغَضِبَ الْفَتَى وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ ، وقال فى حِدَّةٍ وإباءٍ : «أَتَدفَعُ لِى أَجْرًا عَلَى الْمَعْرُوفِ يا باشا ؟ إنَّهُ وَاجبٌ أَدَّيْتُه ، وَعَمَلٌ إنْسَانِىٌّ قُمْتُ بِه ، ولَسْتُ مُنْتَظِرًا عَلَيْه أَجْرًا وَلَا شُكْرًا !!

« إنَّ قُوَّةً قَاهِرَة ، كانَتْ تَدْفَعُنِي إلى ذٰلِكَ الْمَكان ، عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ مِنِّي ، وَلَا نِيَّة ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ ما رأيت ، أَيْقَنْتُ أَنَّ اللهَ قَدْ ساقنى لإِنْقَاذِ هٰذِهِ الْفَتَاة ، وَوَفَّقَنِي لِصُنْعِ هٰذا المعروف ؛ فَأَنا أَرْجو ثَوابَ ما عَمِلت مِنَ الله ، لَا مِنْ عِبادِ الله ! »

فَأُعْجِبَ الباشا بِهٰذَا الْفَتَى ، الْفَقيرِ الْجَيْبِ الْغَنِيِّ النفْس ، وقَالَ له : « حَيَّاكَ اللهُ يا صابر ! إنى أَرَى فيكَ شَهامَةَ أَهْلِ الرِّيف ، وَعِزَّةَ نُفُوسهم ؛ فَمِنْ أَيِّ الْبِلادِ أَنْت ؟ »

فمَسَحَ الفَتَى جَبِينَهُ بِيَدِهِ ، كأَنَّما يَتَذَكَّرُ

ماضياً بَعيدًا طَالَ عَهْدُه ، ثمَّ قَال : « كانَ أَهْلِي يَعِيشُونَ فى قَرْيَةِ « الْحَامُول » ، منْ مُحافَظَةِ الْمُنُوفِية : وَلٰكِنِّى هَجَرْتُ الْقَرْيَةَ وَأَهْلَها مِنْ زَمان ، وَانَقْطَعَتْ عَنِّى أَخْبَارُها » .

فَاعْتَدَلَ الباشا فى كُرْسِيِّه ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْفَتَى فى اهْتِمام ، وَقَال : « أَنْتَ من الحامولِ يَا صابر . . . ؟ »

قَالَ : « نَعَمْ » .

قَالَ البَاشا : « وَاسْمُكَ صابرٌ بَدْرُ الدين ؟ »

قَال : « نَعَمْ » .

فَبَدَتْ عَلَائمُ الدَّهْشَةِ فى وَجْهِ الباشا ، وَقال :

« وَما اسْمُ جَدِّكَ يا صابر ؟ »

قَالَ صابر : « كَانَ اسْمُهُ الشَّيْخَ عَبْدَ التَّوَّاب؛ وَيقولونَ : إِنَّهُ كَانَ فِى زَمَنِهِ شَيْخاً لِلْبَلَد » .

فَنَهَضَ الباشا وَاقِفاً ، وَاندَفَعَ إِلى صابر ، فَاحْتَضَنَهُ إِلَى صَدْرِه ، وَجَعَلَ يَبكِى ، لاَ يَكادُ يَمْلِكَ نَفْسَهُ منَ التَّأَثُّر ، وَصابرٌ بين ذِرَاعَيْهِ ذَاهِلٌ مَدْهُوش ،لَايَدْرِى مَاذَا أَصابَ الرَّجُل ؛وَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ بِهِ نَوْبَةً عَصَبِيَّة ، فَلَمْ يَدْرِ ماذا يَصْنَعُ لَهُ ، وَوَدَّ لَوْ يَسْتَطِيع أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ بَيْن يَدَيْه .

* * *

فِى تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، دَخَلَتِ الْخَادِمَة ،

تَحْمِلُ صِينِيَّةَ الْقَهْوَة ؛ فَلَمَّا رَأَتْ هٰذَا الْمَنْظَرَ الْغَرِيب ، وَضَعَتِ الصِّينِيَّة ، وَوَلَّتْ راجِعَة ، فَأَخْبَرتْ سَيِّدَتَها « عَفاف » ؛ فَجَاءَتْ عَفافُ مُسْرِعَة لِتَرَى ما هُنالك .

فَشَاهَدَتْ أَباها ، وَقَد أَجْلَسَ الْفَتَى إِلى جانِبِه ، وَطَوَّقَهُ بِذراعِه ، وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّج ، وَآثَارُ الدُّمُوعِ فى عَيْنَيْه : « مَرْحَباً بِكَ يَا ٱبْنَ أَخِى . . . ! » وَصَابِرٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مُسْتَعْجِباً ، لَا يَكادُ يَفْهَم . . .

وَحِينَ دَخَلَتْ عَفَاف ، نَاداها أَبُوها : « تَعَالى ياعَفاف .. تَعالى ..! أَلا تَعْرِفِينَ مَنْ هٰذا الْفَتَى ..؟

«إِنَّهُ ابْنُ عَمِّكِ يا عَفاف : عَمِّكِ بَدْرِ الدِّين ، الَّذِى أَخْبَرْتُكِ أَنَّهُ ماتَ ولَمْ يُخَلِّفْ ، وَما كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى هٰذِهِ السَّاعَة ، أَنَّهُ خَلَّفَ هٰذَا الْفَتَى الشَّهْم ، الَّذِى خَلَّصَكِ يا عَفَاف ، وكانَت نَجاتُكِ عَلَى يَدَيْه !

«وَأَنْتَ يا صابِر . . . أَلا تَعْرِفُ عَفافَ حَتَّى الْآن . . ؟

«إِنَّها ابْنَتى ، وَأَنا عَمُّك سَيْف باشا عَبدُ التَّوَّاب . . ! »

فَبَرَّقَ الْفَتى عَيْنَيْهِ فى ذُهُول ، وَهُوَ يَقُول : «عَمِّى . . . ؟ باشا . . ؟ ! »

فَقالَ عَمُّه : «لا تَدْهَشْ وَلا تَسْتَعْجِبْ يا بُنَيَّ ؛ أنا عَمُّكَ سَيْف ، وَأَنْتَ ابْنُ أَخِي بَدْرِ الدِّين، وَقَدْ هَجَرْتُ الْقَرَيَةَ قَبْلَ أَنْ تُولَد ، وَانْقَطَعَتْ صِلَتِي بِها ؛ فالْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى مَنَّ عَلَيَّ بِلِقائِك ، وَفَرَّحَنِي بِرُؤْيَتِك ، وَوَهَبَكَ لى عَلَى الْكِبَر ، لِتَكُونَ ولَدِى وَقُرَّةَ عَيْنِى . . ! »

فَتَأَثَّرَ صابِر ، وَغَمَرَهُ الْفَرَحُ وَالسَّرور ، حَتَّى اغْرَوْرَقَتْ عيْناهُ ، وَتَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ عَفاف ، فَصافَحَتْهُ فى سُرُورٍ وَابْتِهاج ، وهِيَ لا تَمْلِكُ نَفْسَها مِنَ الْفَرَح .

وَقامَ الْباشا فَرْحانَ مُبْتَهِجاً ، يُنادِى زَوْجَتَهُ

لِيُعَرِّفَها بابْن أَخِيه ؛ وَجَلَس صابِرٌ وَعَفافُ يَتحَدَّثان ، وَيَعْجَبانِ لِهذِهِ الْمُصَادَفَةِ السَّعِيدَة، الَّتى جَمَعَتْهُما عَلَى غيْرِ انْتِظار . . .

ودَخَلَ الْباشا ومَعَهُ زَوْجَتُه ، فَحَيَّتْ صابِرًا وَسَلَّمَتْ عَلَيْه ، وَجَعَلَ الْباشا يَقُصُّ عَلَيْها قِصَّتَه ، وَيَقُول : «أَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ يَكُونَ ابْنُ أَخِي ، ساكِناً فِى جِوارِى وَلا أَدْرِى ؟ وَأَنْ يَكُون خَلَاصُ بِنْتِي عَلَى يَدَيْهِ ، وَهُوَ لا يَعْرِفُها وَلا تَعْرِفُه . . ؟ »

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى صابِرٍ وَقال : «وَلٰكِنَّكَ يا صابر ، لَمْ تُخَلِّصْها لِى ، وَلَمْ تُنْقِذْها مِنْ

أَجْلِي . . .

« لَقَدْ خَلَّصْتَها لِنَفْسِك ، وَحَفِظْتَها لِنَفْسِك . . ! فَهِيَ لَكَ وَأَنْتَ لَها ؛ وكلُّ ما نَمْلِكُ مِنْ مالٍ وَمتَاع ، فَهُوَ مِلْكٌ خَالِصٌ لَكُما ؛ وأَنا ، وأُمُّها ، وأُمُّك ، ضُيُوفٌ عَلَيْكُما ى هٰذا الْقَصْر : وأَنتما يا عَزيزَىَّ مِنَ الْآن ، الزَّوْجانِ السَّعيدان . . ! »

رقم الإيداع	١٩٧٦/١٧٤٠
الترقيم الدولى ٩ – ٠٤٥ – ٢٤٦ – ٩٧٧	ISBN

١/٧٦/٢٩ مطابع دار المعارف–١٩٧٦